عبد الحميد كشك

تفسير سورة الحاقة

المختار الإسلامي



الحاقة ما الحاقة

* ما جزاء هؤلاء المكذبين
* ماذا قال أهل القصص عن عاد ونبيهم هود
* العرب العاربة والمستعربة
* الأبيات التى من أجلها دمر الله عليهم
* الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر
* فرعون وموسى
* عاقبة المتكبرين والظالمين
* دعوة غضب الله
* قوم لوط عليه السلام وما حل بهم
* حكم من كذب رسولا واحدا
* الإشراك بالله



مطبعة نهضة مصر

تفسير سورة الحاقة

عبد الحميد كشك



للطبع والنشر والتوزيع
١٦ شارع كامل صدقى بالفجالة
القاهرة ت ٩١١٣٧١

رقم الايداع ٨٧/٣٩٧٦

فهرس

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، وأصلى وأسلم صلاة وتسليما يليقان بمقام أمير الأنبياء وإمام المرسلين ، وأشهد أن لا إله إلا الله ولى الصالحين ، وأشهد أن سيدنا ونبينا وعظيمنا وحبيبنا محمداً رسول الله خاتم الأنبياء والمرسلين . نشهد أنك بلغت الرسالة ، وأديت الأمانة ، ونصحت الأمة ومحوت الظلمة ، وكشفت الغمة ، فجزاك الله يارسول الله عنا خير ماجزى نبياً عن أمته ، ورسولا عن قومه ، وبعد :

فهذا كتاب أردت به تتميم ما يجرى على ساحة القيامة من مواقف رهيبة ، ومشاهد مهيبة ، حتى يعلم الناس ما سوف يلقونه بعد ما تصل الروح إلى خالقها .

سُورَةُ الحَاقَّةِ مَكِّيَّة وَآيَاتُهَا ٥٢

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلْحَاقَّةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْحَاقَّةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَاقَّةُ ﴿٣﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ
بِٱلْقَارِعَةِ ﴿٤﴾ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟
بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا
فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم
مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾ وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ﴿٩﴾
فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴿١٠﴾ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ
حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴿١٢﴾
فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا
دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ
فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ
فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾
فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى

ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾

ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا الْخَٰطِـُٔونَ ﴿٣٧﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ الْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾

هذه السورة الكريمة اشتملت على موضوع الكتاب من ألفه إلى يائه ففيها ذكر القيامة ومشاهدها الرهيبة ، وقبل أن نستأذن بالدخول فى ساحاتها المباركة ، وجوانبها الكريمة ، نذكر قصة لهذه السورة مع عملاق الإسلام عمر بن الخطاب الذى قال : أول مادخل الإسلام قلبى ، كنت أمشي ذات ليلة ، فسمعت رسول الله ﷺ يقرأ من سورة الحاقة ، فقلت فى نفسى إن هذا الكلام كلام شاعر ، فسمعته يقرأ فى آخرها « **وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون** » قلت فى نفسى إن هذا الكلام كلام كاهن ، فسمعته يقرأ « **ولا بقول كاهن قليلا ماتذكرون** » قلت : إن هذا الكلام كلام محمد فسمعته يقرأ « **تنزيل من رب العالمين** » إلى آخر السورة . قلت فى نفسى إن هذا الكلام كلام الله .

نعم إنه كلام الله ، ولا أحد يشرك بالله فى كلامه وحكمه إلا إذا كان مطموس البصيرة ، مريض القلب .

بسم الله الرحمن الرحيم « **حم . تنزيل من الرحمن الرحيم ، كتاب فصلت آياته قرآنا عربياً لقوم يعلمون . بشيراً ونذيراً فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون . وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون** » .

نعم يافاروق هذه الأمة . يا سراج أهل الجنة . يامن بكى الإسلام على موتك إن هذا الكلام كلام الله .

عبد الحميد كشك

الحاقة . ما الحاقة ؟ وما أدراك ما الحاقة ؟

الحاقة هى الساعة الثابتة الوقوع ، وحق الشئ إذا ثبت وبلغ مبلغ اليقين . الساعة آتية لا ريب فيها لا يجادل فيها إلا مكابر أو جاهل أو ظالم أو جاحد . لكن المؤمنون يعملون أنها الحق . ثم يأتى أسلوب الاستفهام الذى يراد به التفخيم لشأنها ، والتعظيم لحالها ، فيقول تعالى (**ما الحاقة**) وكأن الأفهام لا تحيط بهولها ، والأفكار لا تستطيع أن تستوعب عظيم شأنها ، فيعود الأسلوب القرآنى الرائع فى استفهام تنفطر له الأفئدة ، وتنخلع من قوله (**وما أدراك ما الحاقة**) وكأن القياس بمقاييس العقول البشرية أن يقال : لقد خشع العباد لهولها ، وعنت الوجوه لجلالها ، وخشعت الأصوات لعظم مليكها ، وأيقنت القلوب وصدقت بالإيمان بها ، لكن ياحسرة على العباد يأتى التعقيب (**كذبت ثمود وعاد بالقارعة**) طغيان ما بعده طغيان . وتمرد على أوامر الواحد الديان ، ولجاجة فى عتو ونفور . لم يقل القرآن كذبت ثمود وعاد بالحاقة ، إنما قال بالقارعة ، فأضاف إليها إسماً آخر لو نزل على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله . لقد وصفها الله بالقارعة التى تقرع النفوس وتفجؤها بوقوعها .

بسم الله الرحمن الرحيم : « **إذا وقعت الواقعة . ليس لوقعتها كاذبة ، خافضة رافعة. إذا رجت الأرض رجاً. وبست الجبال بساً. فكانت هباء منبثاً . وكنتم أزواجاً ثلاثة . فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة . وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة . والسابقون السابقون** » .

نعم يا قوم إنها الحاقة . « وإنها القارعة ما القارعة . وما أدراك ما القارعة يوم يكون الناس كالفراش المبثوث . وتكون الجبال كالعهن المنقوش . فأما من ثقلت موازينه فهو فى عيشة راضية . وأما من خفت موازينه فأمه هاوية . وما أدراك ماهيه . نار حامية » .

فما جزاء هؤلاء المكذبين ؟

قال تعالى « **فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية** » وهم قوم نبى الله صالح فكيف التوفيق بين أنواع العذاب التى عذب بها هؤلاء . فى سورة الأعراف قال تعالى : « **فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين** » .

وفى سورة هود قال تعالى « **فلما جاء أمرنا نجينا صالحاً والذين آمنوا معه برحمة منا ومن خزى يومئذ إن ربك هو القوى العزيز . وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين . كأن لم يغنوا فيها ألا إن ثمود كفروا ربهم ألا بعداً لثمود** .

وفى سورة (فصلت) قال تعالى :

« **وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون** » .

وفى سورة الحاقة « **فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية** » . فكيف نوفق بين هذه الأنواع من العقوبة ؟ والجواب على هذا أنهم عذبوا بكل هذه الأنواع صاح فيهم جبريل فأصيبوا بالرجفة ، فأخذتهم صاعقة العذاب الهون ، فسميت هذه العقوبات كلها بالطاغية ، أى التى تجاوزت حدود الأفهام لما لها من هول فى النفوس ، وفزع فى القلوب .

قوله تعالى « **وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية . سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسو ما فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية . فهل ترى لهم من باقية** » . (**وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر**) .

يقول العلامة ابن كثير : (**وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر**) أى باردة . قال قتادة والسدى والربيع بن أنس والثورى (عاتية) : أى شديد الهبوب . قال قتادة : عتت عليهم حتى نقبت عن أفئدتهم .

وقال الضحاك (صرصر) : باردة . (عاتية) عتت عليهم بغير رحمة ولا بركة ، وقال على وغيره عتت الخزنة فخرجت بغير حساب (سخرها عليهم) أى : سلطها عليهم . (سبع ليال وثمانية أيام حسوما) : أى كوامل متتابعات مشائيم عليهم ، كقوله تعالى (**فى أيام نحسات**) . قال الربيع وكان أولها الجمعة ، وقال غيره الأربعاء ، ويقال إنها التى تسميها الناس الأعجاز ، وكأن الناس أخذوا ذلك من قوله تعالى (**فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية**) وقيل لأنها تكون فى عجز الشتاء ، ويقال أيام العجوز لأن عجوزا من قوم عاد دخلت سربا فقتلها الريح فى اليوم الثامن ، حكاه البغوى والله أعلم .

ماذا قال أهل القصص عن عاد ونبيهم هود ؟

يقول العلامة الإمام أبو الفداء إسماعيل بن كثير (فى قصص الأنبياء) متحدثا عن عاد قوم هود :

« هو هود بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح عليه السلام ، ويقال إن هوداً هو عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح ، ويقال هود بن عبد الله بن رباح الجاورد بن عاد بن عوض إبن إرم ابن سام بن نوح عليه السلام .

ذكره ابن جرير .

وكان من قبيلة يقال لهم عاد بن عوض بن سام بن نوح ، وكانوا عربا يسكنون الأحقاف – وهى جبال الرمل – وكانت باليمن . بين عمان وحضرموت ، بأرض مطلة على البحر يقال لها الشحر ، واسم واديهم مغيث ..

وكانوا كثيرا ما يسكنون الخيام ذوات الأعمدة الضخام ، كما قال تعالى « **ألم تركيف فعل ربك بعاد . إرم ذات العماد** » : أى عاد إرم وهم عاد الأولى .

وأما عاد الثانية فمتأخرة كما سيأتى بيان ذلك فى موضعه . وأما عاد الأولى فهم عاد « إرم ذات العماد . التى لم يخلق مثلها فى البلاد » .

أى مثل القبيلة ، وقيل مثل العمر ، والصحيح الأول كما بيناه فى التفسير .

ومن زعم أن « إرم » مدينة تدور فى الأرض ، فتارة فى الشام ، وتارة فى اليمن ، وتارة فى الحجاز ، وتارة فى غيرها . فقد أبعد النجعة ، وقال مالا دليل عليه ، ولا برهان يعول عليه ، ولا مستند يركن إليه .

وفى صحيح ابن حبان عن أبى ذر فى حديثه الطويل فى ذكر الأنبياء والمرسلين قال فيه : « منهم أربعة من العرب : هود وصالح وشعيب ونبيك يا أبا ذر » .

ويقال إن هوداً عليه السلام أول من تكلم بالعربية . وزعم وهب بن منبه أن أباه أول من تكلم بها ، وقال غيره : أول من تكلم بها نوح ، وقيل آدم وهو الأشبه ، وقيل غير ذلك . والله أعلم .

العرب العاربة والمستعربة

ويقال للعرب الذين كانوا قبل إسماعيل عليه السلام ، العرب العاربة ، وهم قبائل كثيرة : منهم عاد وثمود وجرهم وطسم وجديس وأميم ومدين وعملاق وعبيل وجاسم وقحطان وبنو يقطن وغيرهم . وأما العرب المستعربة : فهم من ولد إسماعيل بن إبراهيم الخليل ، وكان إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام أول من تكلم بالعربية الفصيحة البليغة ، وكان قد أخذ كلام العرب من جرهم الذين نزلوا عند أمه هاجر بالحرم ، ولكن أنطقه الله بها فى غاية الفصاحة والبيان ، وكذلك كان يتلفظ بها رسول الله ﷺ ، والمقصود أن عاداً – وهم عاد الأولى – كانوا أول من عبد الأصنام بعد الطوفان ، وكانت أصنامهم ثلاثة : (صدا وصمودا وهرا) ، فبعث الله فيهم أخاهم هوداً – عليه السلام – فدعاهم إلى الله ، كما قال الله تعالى ، بعد ذكر قوم نوح ، وما كان من أمرهم فى سورة الأعراف « **وإلى عاد أخاهم هوداً قال ياقوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون . قال الملأ الذين كفروا من قومه إنا لنراك فى سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين . قال ياقوم ليس بى سفاهة ولكنى رسول من رب العالمين . أبلغكم رسالات ربى وأنا لكم ناصح أمين . أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم فى الخلق بسطة فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون . قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا فائتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين . قال قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب أتجادلوننى فى**

أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما نزل الله بها من سلطان فانتظروا إنى معكم من المنتظرين . فأنجيناه والذين معه برحمة منا وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا وما كانوا مؤمنين » .

وقال تعالى بعد ذكر قصة نوح فى سورة هود « وإلى عاد أخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إن أنتم إلا مفترون . ياقوم لا أسألكم عليه أجرا إن أجرى إلا على الذى فطرنى أفلا تعقلون . ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدرارا ويزدكم قوة إلى قوتكم ولا تتولوا مجرمين . قالوا يا هود ما جئتنا ببينة وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين . إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء قال إنى أشهد الله واشهدوا أنى برئ مما تشركون . من دونه فكيدونى جميعا ثم لا تنظرون . إنى توكلت على الله ربى وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربى على صراط مستقيم . فإن تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم ويستخلف ربى قوماً غيركم ولا تضرونه شيئاً إن ربى على كل شئ حفيظ . ولما جاء أمرنا نجينا هوداً والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ . وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله واتبعوا أمر كل جبار عنيد . واتبعوا فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة إلا إن عاداً كفروا ربهم ألا بعدا لعاد قوم هود » .

وقال تعالى فى سورة « المؤمنون » بعد قصة قوم نوح « ثم أنشأنا من بعدهم قرنا آخرين . فأرسلنا فيهم رسولا منهم أن اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون . وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم فى الحياة الدنيا ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون . ولئن أطعتم بشرا مثلكم إنكم إذا لخاسرون . أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم تراباً وعظاماً أنكم مخرجون . هيهات هيهات لما

توعدون . إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين . إن هو إلا رجل افترى على الله كذبا وما نحن له بمؤمنين . قال رب انصرنى بما كذبون . قال عما قليل ليصبحن نادمين . فأخذتهم الصيحة بالحق فجعلناهم غثاء فبعداً للقوم الظالمين » .

وقال تعالى فى سورة الشعراء بعد قصة قوم نوح أيضاً « كذبت عاد المرسلين . إذ قال لهم أخوهم هود ألا تتقون . إنى لكم رسول أمين . فاتقوا الله وأطيعون . وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين . أتبنون بكل ريع آية تعبثون . وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون . وإذا بطشتم بطشتم جبارين . فاتقوا الله وأطيعون . واتقوا الذى أمدكم بما تعلمون . أمدكم بأنعام وبنين . وجنات وعيون . إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم . قالوا سواء علينا أو عظت أم لم تكن من الواعظين . إن هذا إلا خلق الأولين . وما نحن بمعذبين . فكذبوه فأهلكناهم إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين . وإن ربك لهو العزيز الرحيم » .

وقال تعالى فى سورة فصلت « فأما عاد فاستكبروا فى الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة أولم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يجحدون . فأرسلنا عليهم ريحاً صرصراً فى أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون » .

وقال تعالى فى سورة الأحقاف « واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه أن لا تعبدوا إلا الله إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم . قالوا أجئتنا لتأفكنا عن آلهتنا فائتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين . قال إنما العلم عند الله وأبلغكم ما أرسلت به ولكنى أراكم قوما تجهلون . فلما رأوه عارضاً مستقبل أوديتهم قالوا هذا

عارض ممطرنا بل ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم . تدمر كل شئ بأمر ربها فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم كذلك نجزى القوم المجرمين » . وقال تعالى فى سورة الذاريات :

« وفى عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم . ما تذر من شئ أتت عليه إلا جعلته كالرميم » .

وقال تعالى فى سورة النجم « وأنه أهلك عاداً الأولى . وثمود فما أبقى . وقوم نوح من قبل إنهم كانواهم أظلم وأطغى . والمؤتفكة أهوى . فغشاها ما غشى . فبأى آلاء ربك تتمارى » .

وقال تعالى فى سورة « القمر » « كذبت عاد فكيف كان عذابى ونذر . إنا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً فى يوم نحس مستمر . تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر . فكيف كان عذابى ونذر . ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر » .

وقال تعالى فى سورة « الحاقة » « وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية . سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية . فهل ترى لهم من باقية » .

وقال تعالى فى سورة الفجر « ألم تر كيف فعل ربك بعاد . إرم ذات العماد . التى لم يخلق مثلها فى البلاد . وثمود الذين جابوا الصخر بالواد . وفرعون ذى الأوتاد . الذين طغوا فى البلاد . فأكثروا فيها الفساد . فصب عليهم ربك سوط عذاب . إن ربك لبالمرصاد » .

وبعدما ساق العلامة ابن كثير هذا الحشد المقدس من آيات الكتاب العزيز فى شأن عاد قوم لوط ، فإننا نستنبط بعون من الله هذه الأسباب التى من أجلها دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها . ولكى تأخذ الأمم من عادة عبرة وعظة ، خشية أن تقع فى غضب الله وعذابه . فإننا نسجل هذه الحيثيات التى استوجبت إنزال العذاب بهم .

الأسباب التى من أجلها دمر الله عليهم

أولا : كان هؤلاء القوم يسكنون مكانا يسمى الأحقاف ، وهى الرمال الغزيرة ، وتقع الأحقاف بين عمان وحضرموت . كانوا كافرين جاحدين ، وهذه وحدها تكفى لإنزال الدمار بهم . قال تعالى « ألا إن عاداً كفروا ربهم » .

ثانيا : كانوا متكبرين على قبول الحق . قال تعالى « وإلى عاد أخاهم هوداً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون » .

فماذا كان ردهم وجوابهم ؟ هل أنصتوا لنداء الناصحين . لقد اتهموه بالسفه وخفة العقل .

ومن هؤلاء الذين ردوا عليه ؟ إنهم أشرافهم وكبراؤهم ، وهم الذين سماهم القرآن بالملأ .

ثالثاً : اتهموا نبى الله هوداً بالكذب . وأى كذب فى أمرهم بتوحيد الله ، والدلائل كلها ناطقة بلسان حالها ومقالها بأن خالق الكون واحد لا شريك له ؟! فأى كذب فى هذا ؟! يبين الله تعالى هذا الموقف فيقول **« قال الملأ الذين كفروا من قومه إنا لنراك فى سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين »** .

فماذا كان رد هود عليهم ؟ لقد كان الفرق شاسعا بين كلامهم ورده ، وبين اتهامهم ودفاعه . **« قال ياقوم ليس بى سفاهة ولكنى رسول من رب**

العالمين . أبلغكم رسالات ربى وأنا لكم ناصح أمين . أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم فى الخلق بسطة فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون » .

رابعاً : وهذه داهية الدواهى أنهم عجبوا وقالوا لهود « **أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا فائتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين** » .

وهنا جاء الرد حاسما وقاطعاً وجازماً . قال « قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب » .

خامساً : إنهم ظنوا ألا أحد أقوى منهم ، فقالوا فى عجب وكبرياء وخيلاء « من أشد منا قوة » وما أقاموا لأحد وزنا ، وهنا بلغ السيل الزبا ، ولم يبق فى قوس الصبر منزع ، وجاء الرد من ذى القوة المتين « **أو لم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يجحدون فأرسلنا عليهم ريحاً صرصرا فى أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون** » .

وهكذا انطوت تلك الصفحة الكئيبة « **إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين** » .

استمرت هذه الغارة سبع ليال وثمانية أيام حسوما ، سخرها الله عليهم : أى سلطها سبع ليال وثمانية أيام حسوما . قال علماء التفسير : أى كوامل متتابعات مشائيم . قال ابن مسعود وابن عباس ومجاهد وعكرمة والثورى وغيرهم : حسوما متتابعات .

وعن عكرمة وربيع بن خثيم : مشائيم عليهم . كقوله تعالى « فى أيام نحسات » قال الربيع وكان أولها الجمعة ، وقال غيره الأربعاء ، ويقال إنها التى نسميها الناس الأعجاز ، وكأن الناس أخذوا ذلك من قوله تعالى « **فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية** » .

وقيل لأنها تكون فى عجز الشتاء .

ويقال أيام العجوز . لأن عجوزاً من قوم عاد دخلت سربا فقتلها الريح فى اليوم الثامن . حكاه البغوى والله أعلم .

قال ابن عباس : خاوية : خربة . وقال غيره : بالية . أى جعلت الريح تضرب بأحدهم الأرض فيخر ميتاً على أم رأسه ، فينشرخ رأسه ، وتبقى جثته هامدة كأنها قائمة النخل إذا خرت بلا أغصان .

وقد ثبت فى الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال (**نصرت بالصبا ، وأهلكت عاد بالدبور**) .

وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى ، حدثنا محمد بن يحيى بن الضريس العبدى ، حدثنا ابن فضيل عن مسلم عن مجاهد عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : (**ما فتح الله على عاد من الريح التى هلكوا بها إلا مثل موضع الخاتم ، فمرت بأهل البادية فحملتهم ومواشيهم وأموالهم فجعلتهم بين السماء والأرض ، فلما رأى ذلك أهل الحاضرة من عاد الريح وما فيها قالوا : هذا عارض ممطرنا ، فألقت أهل البادية ومواشيهم على أهل الحاضرة**) .

وذلك قوله تعالى : « **فهل ترى لهم من باقية** » . الفاء هنا تفريعية أى

أنها فرعت ما بعدها على ما قبلها « **سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية . فهل ترى لهم من باقية** » والاستفهام هنا إنكارى يفيد النفى . كأنه تعالى قال : فلا ترى لهم باقية ، والرؤية هنا تفيد العلم لمن لم ير بعينيه ، أى فهل تعلم لهم من شئ بقى . لقد دمرت الريح كل شئ بإذن ربها « وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد . إن فى ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود » .

الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ؟

لقد أرسل الله الأمين جبريل ليخسف الأرض بقوم ظالمين . قال جبريل : يارب إن فيها عبداً صالحاً ، قال له الله تعالى به فابدأ ، فإنه رأى المنكر فلم يتغير وجهه من أجلى . لذا فإن الساكت عن الحق شيطان أخرس « **وإذ قالت أمة منهم لم تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذبهم عذابا شديداً قالوا معذرة إلى ربكم ولعلهم يتقون . فلما نسوا ما ذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون . فلما عتوا عما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين** » .

قال تبارك وتعالى : « **لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون . ترى كثيرا منهم يتولون الذين كفروا لبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفى العذاب هم خالدون . ولو كانوا يؤمنون بالله والنبى وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء ولكن كثيرا منهم فاسقون** » .

يخبر تعالى أنه لعن الكافرين من بنى إسرائيل من دهر طويل فيما أنزله على داود نبيه عليه السلام ، وعلى لسان عيسى بن مريم بسبب عصيانهم لله واعتدائهم على خلقه . قال العوفى عن ابن عباس « لعنوا فى التوراة والإنجيل وفى الزبور وفى الفرقان » ثم بين حالهم فما كانوا يتعمدونه فى

زمانهم ، فقال تعالى : « **كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون** » أى كان لا ينهى أحد منهم أحدا على ارتكاب المآثم والمحارم . ثم ذمهم على ذلك ليحذر أن يرتكب مثل الذى ارتكبوه ، فقال « لبئس ما كانوا يفعلون » .

وقال الإمام أحمد رحمه الله عن أبى عبيدة عن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « **لما وقعت بنو إسرائيل فى المعاصى ، نهتهم علماؤهم فلم ينتهوا ، فجالسوهم فى مجالسهم . قال يزيد وأحسبه قال فى أسواقهم ، وواكلوهم وشاربوهم ، فضرب الله قلوب بعضهم ببعض ، ولعنهم على لسان داود وعيسى بن مريم ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون** » .

وكان رسول الله ﷺ متكئا فجلس ، فقال : « **لا والذى نفسى بيده حتى تأطروهم على الحق أطراً** » .

وقال أبو داود : حدثنا عبد الله بن محمد النفيلى ، حدثنا يونس بن راشد عن على بن بذيمة عن أبى عبيدة عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أول مادخل النقص على بنى إسرائيل كان الرجل يلقى الرجل فيقول : ياهذا اتق الله ودع ما تصنع فإنه لا يحل لك . ثم يلقاه من الغد فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده ، فلما فعلوا ذلك ، ضرب الله قلوب بعضهم ببعض . ثم قال : « لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم » إلى قوله « فاسقون » ثم قال كلا والله لتأمرن بالمعروف ، ولتنهون عن المنكر ، ولتأخذن على يد الظالم ، ولتأطرنه على الحق أطرا أو تقصرنه على الحق قصراً » .

عن أبى عبيدة عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ « **إن الرجل من بنى إسرائيل كان إذا رأى أخاه على الذنب نهاه عنه تعذيراً ، فإذا كان من الغد لم يمنعه ما رأى منه أن يكون أكيله وخليطه وشريكه** » .

وفى حديث هارون وشريبه ، فلما رأى الله ذلك منهم ضرب قلوب بعضهم على بعض ، ولعنهم على لسان نبيهم داود وعيسى بن مريم ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون .

ثم قال رسول الله ﷺ « **والذى نفسى بيده لتأمرن بالمعروف ، ولتنهون عن المنكر ، ولتأخذن على يد المسئ ، ولتأطرنه على الحق أطراً ، أو ليضربن الله قلوب بعضكم على بعض ، أو ليلعننكم كما لعنهم** » .

وعن حذيفة بن اليمان أن النبى ﷺ قال : « **والذى نفسى بيده ، لتأمرن بالمعروف ، ولتنهون عن المنكر ، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً من عنده ، ثم لتدعنه فلا يستجيب لكم** » .

وعن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله ﷺ ؛ « **من رأى منكم منكرا فليغيره بيده ، فإن لم يستطيع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان** » رواه مسلم .

وقال الإمام أحمد : حدثنا ابن نمير ، حدثنا ابن أبى سليمان قال : سمعت عدى بن عرى الكندى يحدث عن مجاهد قال : حدثنى مولى لنا أنه سمع جدى يعنى عدى بن عميرة رضى الله عنه يقول : سمعت النبى ﷺ يقول : « **إن الله لا يعذب العامة بعمل الخاصة حتى يروا المنكر بين**

ظهرانيهم وهم قادرون على أن ينكروه فلا ينكرونه ، فإذا فعلوا ذلك عذب الله الخاصة والعامة » .

وعن ابن عميرة عن النبى ﷺ قال « **إذا عملت الخطيئة فى الأرض كان من شهدها فكرهها ، وقال مرة فأنكرها ، كان كمن غاب عنها ، ومن غاب عنها فرضيها كان كمن شهدها** » .

وقال ابن ماجه : حدثنا عمران بن موسى عن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله ﷺ قام خطيبا فكان فيما قال : « **ألا لا يمنعن رجلا هيبة الناس أن يقول الحق إذا علمه** » .

وقال ابن ماجه : حدثنا راشد بن سعيد الرملى عن أبى غالب عن أبى أمامة قال : عرض لرسول الله ﷺ رجل عند الجمرة الأولى فقال يا رسول الله : أى الجهاد أفضل فسكت عنه ، فلما رمى الجمرة الثانية فسأله فسكت عنه ، فلما رمى جمرة العقبة ووضع رجله فى الغرز ليركب قال أين السائل ؟ قال أنا يا رسول الله ، قال « **كلمة حق تقال عند ذى سلطان جائر** » .

وقال ابن ماجه : حدثنا عبد الله بن نمير عن أبى البحترى عن أبى سعيد قال : قال رسول الله ﷺ « لا يحقرن أحدكم نفسه . قال يا رسول الله كيف يحقر أحدنا نفسه ؟ قال : يرى أمراً لله فيه مقال ثم لا يقولون فيه ، فيقول الله له يوم القيامة : ما منعك أن تقول فى كذا كذا وكذا . فيقول : خشية الناس ، فيقول فإياى كنت أحق أن تخشى » .

وعن يحيى بن سعيد قال : حدثنا عبد الله بن عبد الرحمن أنه سمع أبا

سعيد الخدرى يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **إن الله يسأل العبد يوم القيامة حتى يقول : ما منعك إذ رأيت المنكر أن تنكره ، فإذا لقن الله عبدا حجته قال : يارب رجوتك وفرقت الناس** » .

وعن أنس بن مالك قال : قيل يا رسول الله متى يترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر؟ قال : إذا ظهر فيكم ماظهر فى الأمم قبلكم ، قلنا يا رسول الله وما ظهر فى الأمم قبلنا ؟ قال : الملك فى صغاركم ، والفاحشة فى كباركم ، والعلم فى رذالكم » . قال زيد تفسير معنى قول النبى ﷺ فى رذالكم : إذا كان العلم فى الفساق .

وبعد هذا الحشد الكريم من الأحاديث النبوية الشريفة فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، نرى تتمة للفائدة أن نبين معنى قوله تعالى : « **يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم تعملون** » . يقول تعالى آمرا عباده المؤمنين أن يصلحوا أنفسهم ويفعلوا الخير بجهدهم وطاقتهم ، ومخبرا لهم أنه من أصلح أمره لا يضره فساد من فسد من الناس ، سواء كان قريباً منه أو بعيداً .

قال العوفى عن ابن عباس فى تفسير هذه الآية : يقول تعالى « إذا ما العبد أطاعنى فيما أمرته به من الحلال ، ونهيته عنه من الحرام ، فلا يضره من ضل بعده إذا عمل بما أمرته به . فقوله تعالى : « **يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم** » نصب على الإغراء :

أى الزموا شئون أنفسكم بالإصلاح وفعل الصلاح ، ولزوم التقوى ، لأن لفظ عليكم اسم فعل أمر بمعنى الزموا .

قوله تعالى : « **لا يضركم من ضل إذا اهتديتم إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم تعملون** » .

أى فيجازى كل عامل بعمله ، إن خيرا فخير وإن شرا فشر ، وليس فيها دليل على ترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر إذا كان فعل ذلك ممكنا .

وقد قال الإمام أحمد رحمه الله : قام أبو بكر الصديق رضى الله عنه فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أيها الناس إنكم تقرأون هذه الآية « **يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم** » وإنكم تضعونها على غير موضعها ، وإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **إن الناس إذ رأوا المنكر ولا يغيرونه ، يوشك الله عز وجل أن يعمهم بعقابه** » .

وعن أبى أمية الشعبانى قال : أتيت أبا ثعلبة الخشنى فقلت له كيف تصنع فى هذه الآية قال أية آية ؟ قلت قول الله تعالى « **يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم** » قال : أما والله لقد سألت عنها خيرا ، سألت عنها رسول الله ﷺ فقال : « **بل ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر ، حتى إذا رأيت شحاً مطاعاً ، وهوى متبعاً ، ودنيا مؤثرة ، وإعجاب كل ذى رأى برأيه ، فعليك بخاصة نفسك ، ودع العوام فإن من ورائكم أياماً الصابر فيهن مثل القابض على الجمر ، للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلا يعملون كعملكم** » .

قال عبد الله بن المبارك . قيل يا رسول الله أجر خمسين رجلا منا أو منهم ؟ قال بل أجر خمسين منكم .

وقال عبد الرزاق أنبأنا معمر عن الحسن أن ابن مسعود رضى الله عنه سأله رجل عن قول الله تعالى « **عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم** » **فقال«إن هذا ليس بزمانها إنها اليوم مقبولة، ولكنه قد يوشك أن يأتى زمانها ، تأمرون فيصنع بكم كذا وكذا ، أو قال فلا يقبل منكم ، فحينئذ عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل .** »

وروى أبو جعفر الرازى عن الربيع عن أبى العالية عن ابن مسعود فى قوله « **يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل** » الآية . قال : كانوا عند عبد الله بن مسعود جلوسا فكان بين رجلين بعض ما يكون بين الناس ، حتى قام كل واحد منهما إلى صاحبه فقال رجل من جلساء عبد الله : ألا أقوم فآمرهما بالمعروف وأنهاهما عن المنكر؟ فقال آخر إلى جنبه عليك بنفسك ، فإن الله يقول : « **عليكم أنفسكم** » الآية . قال فسمعها ابن مسعود فقال : مه لم يجئ تأويل هذه بعد إن القرآن أنزل ومنه آى قد مضى تأويلهن قبل أن ينزلن ، ومنه آى قد وقع تأويلهن على عهد رسول الله ﷺ ، ومنه آى قد وقع تأويلهن بعد النبى ﷺ بيسير ، ومنه آى يقع تأويلهن بعد اليوم ، ومنه آى تأويلهن عند الساعة ، ما ذكر من الساعة ، ومنه آى يقع تأويلهن يوم الحساب ، ما ذكر من الحساب والجنة والنار . فما دامت قلوبكم واحدة وأهواؤكم واحدة ، ولم تلبسوا شيعاً ، ولم يذق بعضكم بأس بعض ، فأمروا ونهوا ، وإذا اختلفت القلوب والأهواء وألبستم شيعاً وذاق بعضكم بأس بعض ، فامرؤ ونفسه ، وعند ذلك جاءنا تأويل هذه الآية . رواه ابن جرير .

وقال ابن جرير : « حدثنا الحسن بن عرفة ، حدثنا شبابة بن سوار ،

حدثنا الربيع بن صبيح عن سفيان بن عقال قال : قيل لابن عمر : لو جلست فى هذه الأيام فلم تأمر ولم تنه فإن الله قال عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم ، فقال ابن عمر : إنها ليست لى ولا لأصحابى لأن رسول الله ﷺ قال : ألا فليبلغ الشاهد الغائب . فكنا نحن الشهود وأنتم الغيب ، ولكن هذه الآية لأقوام يجيئون من بعدنا إن قالوا لم يقبل منهم » .

وقال ابن جرير : حدثنا عوف عن سوار بن شبيب قال : كنت عند ابن عمر إذ أتاه رجل جليد فى العين ، شديد اللسان ، فقال : يا أبا عبد الرحمن نفر ستة كلهم قد قرأ القرآن فأسرع فيه ، وكلهم مجتهد لا يألو ، وكلهم بغيض إليه أن يأتى دناءة إلا الخير ، وهم فى ذلك يشهد بعضهم على بعض بالشرك . فقال رجل من القوم وأى دناءة تريد أكثر من أن يشهد بعضهم على بعض بالشرك ، فقال الرجل : إنى لست إياك أسأل ، إنما أسأل الشيخ . فأعاد على عبد الله الحديث ، فقال عبد الله : لعلك ترى لا أبالك أنى سآمرك أن تذهب فتقتلهم . عظهم وانهم وإن عصوك فعليك بنفسك فإن الله عز وجل يقول : « **يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم** » .

وقال سعيد بن المسيب : إذا أمرت بالمعروف ونهيت عن المنكر فلا يضرك من ضل إذا اهتديت .

وقال الحسن لما تلا هذه الآية : الحمد لله بها والحمد لله عليها ، وما كان مؤمن فيما مضى ولا مؤمن فيما بقى إلا والى جنبه منافق يكره عمله .

فرعون وموسى

ونعود الآن إلى ما كنا عنده من تفسير سورة الحاقة فنقول و بالله التوفيق « وجاء فرعون ومن قبله والمؤتفكات بالخاطئة . فعصوا رسول ربهم فأخذهم أخذة رابية » .

وفى هذا المشهد القرآنى الكريم ينتقل بنا المنظم العظيم من ديار عاد وثمود إلى أرض مصر ، حيث على رأسها يتربع الجبابرة الذين بلغ من جرأة أحدهم على الله أنه أعلنها صريحة مجلجلة « يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيرى فأوقد لى يا هامان على الطين فاجعل لى صرحاً » .

انظر إلى سفاهة العقول « اجعل لى صرحاً » لماذا ؟ وتزداد العقول سفاهة عندما يذكر العلة « لعلى أطلع إلى إله موسى وإنى لأظنه من الكاذبين » .

إنه عقل فارغ عندما يتصور الله عند آخر صرحه الذى سيبنيه ، وما علم أن الله ليس كمثله شئ ، وما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك . فكيف يتوهم متوهم أنه قد يصعد إلى الله ببناء صرح ، والله تعالى لا يسأل عنه سؤال إحاطة بأين كان ، لأنه خالق المكان ، ولا يسأل عنه بمتى كان ، لأنه خالق الزمان ، لا تدركه الأبصار ولا تحويه الأقطار ، ولا يؤثر فيه الليل ولا النهار ، وهو الواحد القهار ، فماذا كان جواب مولانا جل جلاله على من قال أنا ربكم الأعلى ؟

إن الله تعالى حليم وكريم حتى أن أحد الصالحين لما قرأ قوله جل شأنه يخاطب موسى وهارون « اذهبا إلى فرعون إنه طغى . فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى » . قال أحد الصالحين وهو يمعن النظر فى قوله تعالى « فقولا له قولا له قولا لينا » قال سبحانك ربى إذا كان هذا عطفك بفرعون الذى قال « أنا ربكم الأعلى فكيف يكون عطفك بعبد قال سبحانك ربى الأعلى . وإذا كان هذا حلمك بفرعون الذى قال : ما علمت لكم من إله غيرى ، فكيف يكون حلمك بعبد قال لا إله إلا الله » .

إن الله تعالى حليم ، ولكنه يملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته . إنه يمهل ولكنه لا يهمل .

قال جل شأنه « **والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون . وأملى لهم إن كيدى متين** » .. إن الله لا يعجل كعجلة أحدكم . إن الله يملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته . « **وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد** » .

واقرأ قوله جل شأنه « **وقد مكروا مكرهم وعند الله مكرهم وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال . فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله إن الله عزيز ذو انتقام** » .

وتأمل قوله جل جلاله « **ومكروا مكراً ومكرنا مكراً وهم لا يشعرون . فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين . فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا إن فى ذلك لآية لقوم يعلمون . وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون** » .

عاقبة المتكبرين والظالمين

وهنا يلح علينا سؤال مرير . فماذا كانت عاقبة هذا المتكبر الذى ادعى أنه الإله ، ويجيبنا الله تعالى قائلا « **واستكبر هو وجنوده فى الأرض بغير الحق وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون . فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين . وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون . وأتبعناهم فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين** » .

وإليك أيها القارئ الكريم تفصيلا لهذا المشهد مصداقا لقوله تعالى عن فرعون « فحشر فنادى . فقال أنا ربكم الأعلى ، فأخذه الله نكال الآخرة والأولى . إن فى ذلك لعبرة لمن يخشى » . إنها النهاية المحتومة لكل ظالم .

يقول العلامة ابن كثير فى كتابه (قصص الأنبياء) :

لما تمادى قبط مصر على كفرهم وعتوهم وعنادهم ، متابعة لملكهم فرعون ، ومخالفة لنبى الله ورسوله وكليمه موسى بن عمران عليه السلام . أقام الله على أهل مصر الحجج العظيمة القاهرة ، وأراهم من خوارق العادات ما بهر الأبصار وحير العقول ، وهم مع ذلك لا يرعون ولا ينتهون ولا ينزعون ولا يرجعون ، ولم يؤمن منهم إلا القليل . قيل ثلاثة : وهم امرأة فرعون ، ولا علم لأهل الكتاب بخبرها ، ومؤمن آل فرعون ، والرجل الناصح الذى جاء يسعى من أقصى المدينة فقال : يا موسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إنى لك من الناصحين . وقيل بل آمن به طائفة من

القبط من قوم فرعون والسحرة كلهم وجميع شعب بنى إسرائيل . ويدل على هذا قوله تعالى « **فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملئهم أن يفتنهم وإن فرعون لعال فى الأرض وإنه لمن المسرفين** » .

فالضمير فى قوله « **إلا ذرية من قومه** » عائد على فرعون لأن السياق يدل عليه ، وقيل على موسى لقربه ، والأول أظهر كما هو مقرر فى التفسير . وإيمانهم كان خفية لمخافتهم من فرعون وسطوته وجبروته وسلطته ، ومن ملئهم أن ينموا عليهم إليه فيفتنهم عن دينهم . قال الله تعالى مخبرا عن فرعون « **وكفى بالله شهيداً** » و« **وإن فرعون لعال فى الأرض** » - أى جبار عنيد مشتغل بغير الحق - « وإنه لمن المسرفين » - أى فى جميع أموره وشئونه وأحواله ، ولكنه جرثومة قد حان انجعافها (الأنجعاف معناه الاقتلاع والاستئصال) وثمرة خبيثة قد آن قطافها ومهجة ملعونة قد حتم إتلافها .

وعند ذلك قال موسى : « **يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين . فقالوا على الله توكلنا ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين . ونجنا برحمتك من القوم الكافرين** » . فأمرهم بالتوكل على الله والاستعانة به والالتجاء إليه ، فأتمروا بذلك ، فجعل الله لهم مما كانوا فيه فرجاً ومخرجاً « وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوءا لقومكما بمصر بيوتا واجعلوا بيوتكم قبلة وأقيموا الصلاة وبشر المؤمنين » أوحى الله تعالى إلى موسى وأخيه هارون عليهما السلام أن يتخذا لقومهما بيوتاً متميزة فيما بينهم عن بيوت القبط ليكونوا على أهبة الرحيل إذا أمروا به ، ليعرف بعضهم بيوت بعض . وقوله « **واجعلوا بيوتكم قبلة** » قيل مساجد وقيل معناه : كثرة الصلاة فيها ومعناه على هذا : الاستعانة على ماهم فيه من الضر والشدة والضيق بكثرة

الصلاة . كما قال تعالى « **واستعينوا بالصبر والصلاة** » .

وكان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر صلى . وقيل معناه إنهم لم يكونوا حينئذ يقدرون على إظهار عبادتهم فى مجتمعاتهم ومعابدهم فأمرو أن يصلوا فى بيوتهم عوضاً عما فاتهم من إظهار شعائر الدين الحق فى ذلك الزمان الذى اقتضى حالهم إخفاؤه خوفاً من فرعون وملئه .

والمعنى الأول أقوى لقوله سبحانه وتعالى « وبشر المؤمنين » وإن كان لا ينافى الثانى أيضاً والله أعلم .

وقال سعيد بن جبير « واجعلوا بيوتكم قبلة » : أى متقابلة .

دعوة غضب لله تعالى

« وقال موسى ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا فى الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم . قال قد أجيبت دعوتكما فاستقيما ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون » .

هذه دعوة عظيمة دعا بها كليم الله موسى على عدو الله فرعون ، غضبا لله عليه لتكبره عن اتباع الحق ، وصده عن سبيل الله ، ومعاندته وعتوه وتمرده واستمراره على الباطل ، ومكابرته الحق الواضح الجلى ، الحسى والمعنوى ، والبرهان القطعى . فقال « ربنا إنك آتيت فرعون وملأه يعنى قومه من القبط ، ومن كان على ملته ودان بدينه – زينة وأموالا فى الحياة ربنا ليضلوا عن سبيلك » – أى وهذا يغتر به من يعظم أمر الدنيا فيحسب الجاهل أنهم على شئ ، لكن هذه الأموال وهذه الزينة من اللباس والمراكب الحسنة الهينة ، والدور الأنيقة والقصور المبنية ، والمآكل الشهية والمناظر البهية ، والملك العزيز والتمكين والجاه العريض فى الدنيا لا الدين » ربنا اطمس على أموالهم » .

قال ابن عباس ومجاهد أى أهلكها – وقال أبو العالية والربيع بن أنس والضحاك : اجعلها حجارة منقوشة كهيئة ما كانت . وقال قتادة : بلغنا أن زروعهم صارت حجارة . وقال بن كعب : جعل سكرهم حجارة . وقال أيضاً صارت أموالهم كلها حجارة . ذكر ذلك لعمر بن العزيز فقال عمر بن عبد العزيز لغلام له : قم ائتنى بكيس ، فجاءه بكيس ، فإذا فيه

حمص وبيض قد حول حجارة .

وقوله تعالى : « **واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم** » .

قال ابن عباس أى اطبع عليها . وهذه دعوة غضب لله تعالى ولدينه ولبراهينه . فاستجاب الله تعالى لها وحققها وتقبلها كما استجاب لنوح عليه السلام فى قومه حيث قال : « رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً . إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً » .

ولهذا قال تعالى مخاطبا لموسى حين دعا على فرعون وملئه ،وأمن أخوه هارون على دعائه ، فنزل ذلك منزلة الداعى أيضاً : « **قال قد أجيبت دعوتكما فاستقيما ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون** » .

قال المفسرون وغيرهم من أهل الكتاب : استأذن بنو إسرائيل فرعون فى الخروج إلى عيد لهم ، فأذن لهم وهو كاره ، ولكنهم تجهزوا للخروج وتأهبوا له ، وإنما كان فى نفس الأمر مكيدة بفرعون وجنوده ليتخلصوا منهم ، ويخرجوا عنهم ، وأمرهم الله تعالى فيما ذكره أهل الكتاب أن يستعيروا حلياً منهم ، فأعاروهم شيئاً كثيراً ، فخرجوا بليل فساروا مستمرين ذاهبين من فورهم طالبين بلاد الشام . فلما علم بذهابهم فرعون حنق عليهم كل الحنق واشتد غضبه عليهم ، وشرع فى استحثاث جيشه وجمع جنوده ليلحقهم ويمحقهم . قال الله تعالى : « **وأوحينا إلى موسى أن أسر بعبادى إنكم متبعون . فأرسل فرعون فى المدائن حاشرين . إن هؤلاء لشرذمة قليلون . وإنهم لنا لغائظون . وإنا لجميع حاذرون . فأخرجناهم من جنات وعيون . وكنوز ومقام كريم . كذلك وأورثناها بنى إسرائيل . فاتبعوهم مشرقين . فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون . قال كلا إن معى ربى سيهدين . فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر**

فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم . وأزلفنا ثم الآخرين . وأنجينا موسى ومن معه أجمعين . ثم أغرقنا الآخرين . إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين . وإن ربك لهو العزيز الرحيم » . (من سورة الشعراء – الآيات ٥٢ – ٦٨) .

قال علماء التفسير : كما ركب فرعون فى جنوده طالبا بنى إسرائيل يقفو أثرهم ، كان فى جيش كثيف عرمرم ، حتى قيل كان فى خيوله مائة ألف فحل أدهم ، وكانت عدة جنوده تزيد على ألف ألف وستمائة ألف والله أعلم .

وكان بين خروجهم من مصر صحبة موسى عليه السلام ودخولهم إليها صحبة أبيهم إسرائيل ، أربعمائة سنة وستا وعشرين سنة شمسية ، والمقصود أن فرعون لحقهم فأدركهم عند شروق الشمس ، وتراءى الجمعان ، ولم يبق ثم ريب ولا لبس ، وعاين كل من الفريقين صاحبه وتحققه ورآه ، ولم يبق إلا المقاتلة والمجادلة والمحاماة ، فعندها قال أصحاب موسى وهم خائفون : إنا لمدركون ، وذلك لأنهم اضطروا فى طريقهم إلى البحر فليس لهم طريق ولا محيد إلا سلوكه وخوضه ، وهذا مالا يستطيعه أحد ولا يقدر عليه ، والجبال عن يسرتهم وعن أيمانهم وهى شاهقة منيفة ، وفرعون قد غالقهم وواجههم ، وعاينوه فى جنوده وجيوشه وعدده وهم منه فى غاية الخوف والذعر لما قاسوا فى سلطاته من الإهانة والمكر ، فشكوا إلى نبى الله ماهم فيه مما قد شاهدوه وعاينوه . فقال لهم الرسول الصادق المصدوق : « كلا إن معى ربى سيهدين » . وكان فى الساقة فتقدم إلى المقدمة ، ونظر إلى البحر وهو يتلاطم بأمواجه ، ويتزايد زبد أجاجه . وهو يقول : هاهنا أمرت . ومعه أخوه هارون ويوشع بن نون ، وهو يومئذ من سادات بنى إسرائيل وعلمائهم وعبادهم الكبار ، وقد

أوحى الله إليه وجعله نبيا بعد موسى وهارون عليه السلام ، ومعهم أيضاً مؤمن آل فرعون ، وهم وقوف وبنو إسرائيل بكمالهم عليهم عكوف ، ويقال إن مؤمن آل فرعون جعل يقتحم بفرسه مراراً فى البحر هل يمكن سلوكه فلا يمكن ، ويقول لموسى عليه السلام يا نبى الله هاهنا أمرت ؟ فيقول : نعم فلما تفاقم الأمر ، وضاق الحال ، واشتد الأمر ، واقترب فرعون وجنوده فى جدهم وحدهم وحديدهم وغضبهم وحنقهم ، وزاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر ، عند ذلك أوحى الحليم العليم القدير رب العرش الكريم إلى موسى الكليم أن اضرب بعصاك البحر ، فلما ضربه – يقال إنه قال له انفلق بإذن الله – ويقال إنه كناه بأبى خالد فالله أعلم – قال الله تعالى « فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم » . ويقال إنه انفلق اثنى عشر طريقاً لكل سبط طريق يسيرون فيه . حتى قيل إنه صار فيه أيضاً شبابيك ليرى بعضهم بعضاً ، وفى هذا نظر لأن الماء جرم شفاف إذا كان من ورائه ضياء حكاه ، وهكذا كان ماء البحر قائماً مثل الجبال ، مكفوفا بالقدرة العظيمة الصادرة من الذى يقول للشئ كن فيكون . وأمر الله تعالى ريح الدبور فلفحت حال البحر فأذهبته حتى صار يابسا لا يعلق فى سنابك الخيول والدواب . قال الله تعالى « ولقد أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادى فاضرب لهم طريقا فى البحر يبساً لا تخاف دركاً ولا تخشى . فأتبعهم فرعون بجنوده فغشيهم من اليم ما غشيهم وأضل فرعون قومه وما هدى » .

والمقصود أنه لما أمر البحر إلى هذه الحال بإذن الرب العظيم الشديد المحال ، أمر موسى عليه السلام أن يجوزه ببنى إسرائيل ، فانحدروا فيه مسرعين مستبشرين مبادرين وقد شاهدوا من الأمر العظيم ما يحير الناظرين ويهدى قلوب المؤمنين فلما جازوه وجاوزه وخرج آخرهم منه وانفصلوا

عنه ، كان ذلك عند قدوم أول جيش فرعون إليه ، ووفودهم عليه ، فأراد موسى عليه السلام أن يضرب البحر بعصاه ليرجع كما كان عليه ، لأن لا يكون لفرعون وجنوده وصول إليه ، ولا سبيل عليه ، فأمره القدير ذو الجلال أن يترك البحر على هذه الحال كما قال وهو الصادق فى المقال « ولقد فتنا قبلهم قوم فرعون وجاءهم رسول كريم . أن أدوا إلى عباد الله إنى لكم رسول أمين ، وأن لا تعلو على الله إنى آتيكم بسلطان مبين . وإنى عذت بربى وربكم أن ترجمون . وإن لم تؤمنوا لى فاعتزلون . فدعا ربه أن هؤلاء قوم مجرمون . فأسر بعبادى ليلا إنكم متبعون . واترك البحر رهواً إنهم جند مغرقون . كم تركوا من جنات وعيون . وزروع ومقام كريم . ونعمة كانوا فيها فاكهين . كذلك وأورثناها قوماً آخرين . فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين . ولقد نجينا بنى إسرائيل من العذاب المهين – من فرعون إنه كان عالياً من المسرفين – ولقد اخترناهم على علم على العالمين . وآتيناهم من الآيات ما فيه بلاء مبين » . فقوله تعالى « **واترك البحر رهواً** » أى ساكنا على هيئته لا تغيره عن هذه الصفة ، فلما تركه على هيئته وحالته وانتهى فرعون فرأى ما رأى وعاين ماعاين ، هاله هذا المنظر العظيم ، وتحقق ما كان يتحققه قبل ذلك من أن هذا من فعل رب العرش الكريم . فأحجم ولم يتقدم ، وندم فى نفسه على خروجه فى طلبهم والحالة هذه حيث لا ينفعه الندم ، لكنه أظهر لجنوده تجلداً وعاملهم معاملة العدا ، وحملته النفس الكافرة والسجية الفاجرة على أن قال لمن استخفه فأطاعوه ، وعلى باطله تابعوه : انظروا كيف انحسر البحر لى لأدرك عبيدى الآبقين من يدى ، الخارجين على طاعتى وبلدى ؟ وجعل يورى فى نفسه أن يذهب خلفهم ويرجو أن ينجو ، وهيهات ، ويقدم تارة ويحجم تارات ! فذكروا أن جبريل عليه السلام تبدى فى صورة فارس راكب على رمكة حائل (ومعنى الرمكة أى الفرس والحائل التى لم تقلح) فيمر بين

يدى فحل فرعون – لعنه الله – فحمحم إليها وأقبل عليها ، وأسرع جبريل بين يديه واقتحم البحر ، واستبق الجواد وقد أجاد ، فبادر مسرعا . هذا وفرعون لا يملك من نفسه ضرا ولا نفعاً . فلما رأته الجنود قد سلك البحر ، اقتحموا وراءه مسرعين فحصلوا فى البحر أجمعين ، حتى هم أولهم بالخروج منه ، فعند ذلك أمر الله تعالى كليمه فيما أوحاه إليه أن يضرب بعصاه البحر فضربه فارتطم عليهم البحر كما كان فلم ينج منهم إنسان .

قال الله تعالى : « **وأنجينا موسى ومن معه أجمعين . ثم أغرقنا الآخرين . إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين . وإن ربك لهو العزيز الرحيم** » .

أى فى إنجائه أولياءه ، فلم يغرق منهم أحد ، وإغراقه أعداءه ، فلم يخلص منهم أحد ، آية عظيمة وبرهان قاطع على قدرته تعالى العظيمة ، وصدق رسوله فيما جاء به عن ربه من الشريعة الكريمة ، والمناهج المستقيمة .

وقال تعالى : « **وجاوزنا ببنى إسرائيل البحر فاتبعهم فرعون وجنوده بغيا وعدوا حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين . الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين . فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية وإن كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون** » .

يخبر تعالى عن كيفية غرق فرعون زعيم كفرة القبط ، وأنه لما جعلت الأمواج تخفضه تارة ، وترفعه أخرى ، وبنو إسرائيل ينظرون إليه وإلى جنوده ماذا أحل الله به وبهم من البأس العظيم ، والخطب الجسيم ، ليكون أقر لأعين بنى إسرائيل ، وأشفى لنفوسهم ، فلما عاين فرعون الهلكة وأحيط به ، وباشر سكرات الموت ، أناب حينئذ وتاب ، وآمن حين لا

ينفع نفساً إيمانها ؛ كما قال تعالى « **إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون . ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم** » .

وقال تعالى : « **فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين . فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التي قد خلت في عباده وخسر هنالك الكافرون** » .

وهكذا دعا موسى على فرعون وملئه أن يطمس الله على أموالهم ويشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم . أى حين لا ينفعهم ذلك ، ويكون حسرة عليهم ، قد قال تعالى لهما ، أى لموسى وهارون ، حين دعوا بهذا « قد أجيبت دعوتكما » فهذا من إجابة الله تعالى دعوة كليمه وأخيه هارون – عليهما السلام – ومن ذلك الحديث الذى رواه الإمام أحمد عن ابن عباس . قال : قال رسول الله ﷺ : « **لما قال فرعون آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل** » . قال لى جبريل « لو رأيتنى وقد أخذت من حال البحر فدسسته فيه مخافة أن تناله الرحمة » .

وعن ابن عباس قال : « لما أغرق الله فرعون أشار بإصبعه ورفع صوته « آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل » قال فخاف جبريل أن تسبق رحمة الله فيه غضبه ، فجعل يأخذ الحال بجناحيه فيضرب به وجهه فيرمسه (يدفنه) .

وقوله تعالى : « **ءالآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين** » استفهام إنكار ، ونص على عدم قبوله تعالى منه ؛ ذلك لأنه – والله أعلم – لو رد إلى الدنيا كما كان لعاد إلى ما كان عليه ، كما أخبر تعالى عن الكفار إذا عاينوا النار وشاهدوها أنهم يقولون : « ياليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين »

قال الله « **بل بدالهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون** » .

وقاله : « **فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية** » .

قال ابن عباس وغير واحد : شك بعض بنى إسرائيل فى موت فرعون حتى قال بعضهم إنه لا يموت . فأمر الله البحر فرفعه على مرتفع ، قيل على وجه الماء وقيل على نجوة من الأرض وعليه درعه التى يعرفونها من ملابسه ليتحققوا بذلك هلاكه ، ويعلموا قدرة الله عليه ، ولهذا قال : « فاليوم ننجيك ببدنك » أى مصاحبا درعك المعروفة بك « لتكون » أى أنت آية « لمن خلفك » أى من بنى إسرائيل ، ودليلا على قدرة الله الذى أهلكك ، ولهذا قرأ بعض السلف لتكون لمن خلفك آية ، ويحتمل أن يكون المراد ننجيك بجسدك مصاحبا درعك لتكون علامة لمن وراءك من بنى إسرائيل على معرفتك ، وأنك هلكت والله أعلم . وقد كان هلاكه وجنوده فى يوم عاشوراء كما قال الإمام البخارى فى صحيحه : حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا غندر ، حدثنا شعبة عن أبى بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : قدم النبى ﷺ المدينة واليهود تصوم يوم عاشوراء ، فقال : ماهذا اليوم الذى تصومونه » فقالوا هذا يوم ظهر فيه موسى على فرعون ، وقال النبى ﷺ لأصحابه : « **أنتم أحق بموسى منهم فصوموا** » .

وأصل هذا الحديث فى الصحيحين وغيرهما والله أعلم .

وبعدما استمعنا إلى ما ذكره العلامة ابن كثير فى كتابه (قصص الأنبياء) نعود إلى الحديث الأول فى بيان قوله تعالى : « وجاء فرعون ومن قبله والمؤتفكات بالخاطئة » .

فنرى أن القرآن الكريم فى هذه الآية قد طوى العصور طياً كما يطوى البرق معصرات الغمام ، فإن هناك أمما شتى سبقت فرعون وتجبرت وتكبرت

وكفرت بأنعم الله . قال « فما بال القرون الأولى قال علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى » .

إن سورة الحاقة حدثتنا عن عاد وثمود ، وبينهما وبين فرعون أمم وأجيال طحنتها الأنتقامات المتنوعة بسبب كفرها وعنادها ، وعلى وجه المثال قوم إبراهيم ، وقوم نوح ، وقوم شعيب « ألا بعداً لمدين كما بعدت ثمود » .

نبكى على الدنيا وما من معشر
جمعتهم الدنيا فلم يتفرقوا
أين الأكاسرة الجبابرة الأولى
جمعوا الكنوز فما بقينا ولا بقوا
من ذا الذى ضاق الفضاء بجيشه
حتى ثوى فحواه لحد ضيق
خرس إذا نودوا كأن لم يعلموا
أن الكلام لهم حلال مطلق

قوم لوط عليه السلام وما حل بهم

ويحدثنا الكتاب العزيز بعد ذلك عن المؤتفكات ، وهى القرى التى بعث فيها نبى الله لوط ، وسميت بالمؤتفكات لأنها انقلبت على وجهها .

قال تعالى : « **فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود . مسومة عند ربك وما هى من الظالمين ببعيد** » .

وهذه نبذة عن قوم لوط ، حتى تتبين لنا معالمهم ونخشى الله فيما بيننا .

إن مما وقع فى حياة الخليل إبراهيم من الأمور العظيمة قصة قوم لوط عليه السلام ، وما حل بهم من النقمة العميمة ، وكان لوط قد نزح عن محلة عمه الخليل – عليهما السلام – بأمره له وإذنه ، فنزل بمدينة سدوم من أرض غرزغر ، وكان أم (قصد) تلك المحلة ولها أرض ومعتملات وقرى مضافة إليها ، ولها أهل من أفجر الناس وأكفرهم وأسوئهم طوية ، وأردئهم سريرة وسيرة ، يقطعون السبيل ، ويأتون فى ناديهم المنكر ، ولا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون .

ابتدعوا فاحشة لم يسبقهم إليها أحد من بنى آدم ، وهى إتيان الذكران من العالمين ، وترك ما خلق الله من النساء لعباده الصالحين . فدعاهم لوط إلى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له . ونهاهم عن تعاطى هذه المحرمات والفواحش المنكرات والأفاعيل المستقبحات ، فتمادوا على ضلالهم وطغيانهم ، واستمروا على فجورهم وطغيانهم وكفرانهم ، فأحل الله بهم

من البأس الذى لا يرد ؛ مالم يكن فى خلدهم وحسبانهم . وجعلهم مثلة فى العالمين ، وعبرة يتعظ بها الألباء من العالمين . ولهذا ذكر الله تعالى قصتهم فى غير موضع فى كتابه المبين ، فقال تعالى فى سورة الأعراف :

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾

وقال تعالى فى سورة هود :

أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ

إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمِ لُوطٖ ﴿٧٠﴾ وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ

فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتۡ

يَٰوَيۡلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٞ وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًاۖ إِنَّ هَٰذَا

لَشَيۡءٌ عَجِيبٞ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ رَحۡمَتُ

ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ ﴿٧٣﴾

فَلَمَّا ذَهَبَ عَنۡ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلرَّوۡعُ وَجَآءَتۡهُ ٱلۡبُشۡرَىٰ يُجَٰدِلُنَا

فِي قَوۡمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٞ مُّنِيبٞ ﴿٧٥﴾

يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآۖ إِنَّهُۥ قَدۡ جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ

وَإِنَّهُمۡ ءَاتِيهِمۡ عَذَابٌ غَيۡرُ مَرۡدُودٖ ﴿٧٦﴾ وَلَمَّا جَآءَتۡ

رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا وَقَالَ هَٰذَا يَوۡمٌ

عَصِيبٞ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ وَمِن قَبۡلُ

كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ

أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ فِي ضَيۡفِيٓۖ أَلَيۡسَ

مِنكُمۡ رَجُلٞ رَّشِيدٞ ﴿٧٨﴾ قَالُواْ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ

مِنۡ حَقّٖ وَإِنَّكَ لَتَعۡلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً

أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُواْ يَـٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَـٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ۚ

وقال تعالى فى سورة الحجر :

وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلَـٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُواْ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَـٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُواْ بَشَّرْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَـٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ

إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ ۙ إِنَّهَا لَمِنَ
ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ۙ ﴿٦١﴾ قَالَ
إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ
يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ
بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ
مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ
ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾
وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ
ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾
قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن
كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾
فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا
وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ
لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً
لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾

وقال تعالى فى سورة الشعراء :

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾

وقال تعالى فى سورة النمل :

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ

ٱلنِّسَآءِ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٌ تَجۡهَلُونَ ﴿٥٥﴾ فَمَا كَانَ جَوَابَ
قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخۡرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٖ مِّن قَرۡيَتِكُمۡۖ إِنَّهُمۡ
أُنَاسٞ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ
قَدَّرۡنَٰهَا مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِم مَّطَرٗاۖ فَسَآءَ
مَطَرُ ٱلۡمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾

وقال تعالى فى سورة العنكبوت :

وَلُوطًا إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ إِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم
بِهَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ
وَتَقۡطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأۡتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلۡمُنكَرَۖ فَمَا كَانَ
جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئۡتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن
كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي عَلَى ٱلۡقَوۡمِ
ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٣٠﴾ وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ
قَالُوٓاْ إِنَّا مُهۡلِكُوٓاْ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِۖ إِنَّ أَهۡلَهَا كَانُواْ
ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطٗاۚ قَالُواْ [illegible] أَعۡلَمُ بِمَن فِيهَاۖ
لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾
وَلَمَّآ أَن جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا

وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾

وقال تعالى فى سورة الصافات :

وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾

وقال تعالى فى الذاريات بعد قصة إبراهيم وبشارتهم إياه بغلام عليم :

قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ

يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾

وقال فى سورة القمر :

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍۭ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا
عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ ۖ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً
مِّنْ عِندِنَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم
بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا۟ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ
فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم
بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ
يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ

والمقصود الآن إيراد ما كان من أمرهم ، وما أحل الله بهم مجموعاً بالآيات والآثار والله المستعان . وذلك أن لوطاً عليه السلام لما دعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، ونهاهم عن تعاطى ما ذكر الله عنهم من الفواحش ، لم يستجيبوا له ولم يؤمنوا به ، حتى ولا رجل واحد منهم ، ولم يتركوا ما عنه نهوا بل استمروا على حالهم ، ولم يرعووا عن غيهم وضلالهم وهموا بإخراج رسولهم من بين ظهرانيهم ، وما كان حاصل جوابهم عن خطابهم إذ كانوا لا يعقلون إلا أن قالوا « أخرجوا آل لوط من قريتكم إنهم أناس يتطهرون » فجعلوا غاية المدح ذماً يقتضى الإخراج ، وما حملهم على مقالتهم هذه إلا العناد واللجاج . فطهره الله وأهله إلا امرأته ،

وأخرجهم منها أحسن إخراج ، وتركهم فى محلتهم خالدين – لكن بعدما صيرها عليهم بحيرة متننة ذات أمواج – لكنها عليهم فى الحقيقة نار تتأجج ، وحر يتوهج ، وماؤها ملح أجاج . وما كان هذا جوابهم إلا لما نهاهم عن ارتكاب الطامة العظمى ، والفاحشة الكبرى التى لم يسبقهم إليها أحد من العالمين . ولهذا صاروا مثلة فيها ، وكانوا مع ذلك يقطعون الطريق ، ويخونون الرفيق ، ويأتون فى ناديهم – وهو مجتمعهم ومحل حديثهم وسمرهم – المنكر من الأقوال والأفعال على اختلاف أصنافه ، حتى قيل إنهم كانوا لا يستحون من مجالسيهم فى إتيان أى منكر ، وربما وقع منهم الفعلة العظيمة فى المحافل ، ولا يستنكفون ولا يرعون لوعظ واعظ ولا نصيحة من عاقل ، وكانوا فى ذلك وغيره كالأنعام بل أضل سبيلا ، ولم يقلعوا عما كانوا عليه فى الحاضر ولا ندموا على ماسلف من الماضى ولا راموا فى المستقبل تحويلا ، فأخذهم الله أخذاً وبيلا ، وقالوا فيما قالوا « ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين » فطلبوا منه وقوع ما حذرهم عنه من العذاب الأليم ، وحلول البأس العظيم . فعند ذلك دعا عليهم نبيهم الكريم فسأل من رب العالمين وإله المرسلين أن ينصره على القوم المفسدين ، فغار الله لغيرته ، وغضب لغضبته ، واستجاب لدعوته ، وأجابه إلى طلبته ، وبعث رسله الكرام وملائكته العظام فمروا على الخليل إبراهيم وبشروه بالغلام العليم ، وأخبروه بما جاءوا له من الأمر الجسيم ، والخطب العميم « قال فما خطبكم أيها المرسلون . قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين – لنرسل عليهم حجارة من طين . مسومة عند ربك للمسرفين » .

وقال « ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا إنا مهلكو أهل هذه

القرية إن أهلها كانوا ظالمين . قال إن فيها لوطاً قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين » .

وقال الله تعالى « **فلما ذهب عن إبراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنا فى قوم لوط** » وذلك أنه كان يرجو أن يجيبوا أو ينيبوا ويسلموا ويقلعوا ويرجعوا . ولهذا قال تعالى « **إن إبراهيم لحليم أواه منيب يا إبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك وإنهم آتيهم عذاب غير مردود** » .

أى أعرض عن هذا وتكلم فى غيره فإنه قد حسم أمره ، ووجب عذابهم وتدميرهم وهلاكهم : « إنه قد جاء أمر ربك » أى قد أمر به من لا يرد أمره ، ولا يرد بأسه ، ولا معقب لحكمه وإنه آتيهم عذاب غير مردود .

وذكر سعيد بن جبير والسدى وقتادة محمد بن إسحق ، أن إبراهيم عليه السلام جعل يقول : أتهلكون قرية فيها ثلاثمائة مؤمن (قالوا لا) قال : فمائتا مؤمن ؟ قالوا : لا قال : فأربعون مؤمناً ؟ قالوا : لا . قال : فأربعة عشر مؤمناً ؟ قالوا : لا . قال ابن اسحاق : إلى أن قال : أفرأيتم إن كان فيها مؤمن واحد ؟ قالوا لا : « قال : إن فيها لوطاً قالوا نحن أعلم بمن فيها . » الآية .

وعن أهل الكتاب أنه قال : يارب أتهلكهم وفيهم خمسون رجلا صالحاً فقال الله « لا أهلكهم وفيهم خمسون صالحاً » ثم تنازل إلى عشرة . فقال الله : لا أهلكهم وفيهم عشرة صالحون . قال الله تعالى : « **ولما جاءت رسلنا لوطاً سئ بهم وضاق بهم ذرعاً وقال هذا يوم عصيب** » .

قال المفسرون لما فصلت الملائكة من عند إبراهيم ، وهم جبريل وميكائيل وإسرافيل ، أقبلوا حتى أتوا أرض سدوم فى صور شبان حسان اختباراً من الله تعالى لقوم لوط ، وإقامة للحجة عليهم ، فاستضافوا لوطاً عليه السلام ، وذلك عند غروب الشمس فخشى إن لم يضفهم أن يضيفهم غيره وحسبهم بشراً من الناس و« سئ وضاق بهم ذرعاً وقال هذا يوم عصيب » .

قال ابن عباس ومجاهد وقتادة ومحمد بن اسحق : شديد بلاؤه ، وذلك لما يعلم من مدافعته الليلة عنهم كما كان يصنع بهم فى غيرهم ، وكانوا قد اشترطوا عليه أن لا يضيف أحداً ولكن رأى من لا يمكن المحيد عنه . وذكر قتادة أنهم وردوا عليه وهو فى أرض له يعمل فيها ،فتضيفوا فاستحيامنهم وانطلق أمامهم ، وجعل يعرض لهم فى الكلام لعلهم ينصرفون عن هذه القرية وينزلون فى غيرها ، فقال لهم فيما قال : والله يا هؤلاء ما أعلم على وجه الأرض أهل بلد أخبث من هؤلاء . ثم مشى قليلا ثم أعاد ذلك عليهم حتى كرره أربع مرات . قال : وكانوا قد أمروا أن لا يهلكوهم حتى يشهد عليهم نبيهم بذلك .

وقال السدى : خرجت الملائكة من عند إبراهيم نحو قرية لوط فأتوها نصف النهار ، فلما بلغوا نهر سدوم لقوا ابنة لوط تستقى من الماء لأهلها ، وكانت له ابنتان اسم الكبرى « ريثا » والصغرى « زغرتا » فقالوا لها يا جارية هل من منزل ؟ فقالت لهم : نعم . مكانكم لا تدخلوا حتى آتيكم – شفقة عليهم من قومها – فأتت أباها فقالت : يا أبتاه أرادك فتيان على باب المدينة ما رأيت وجوه قوم قط هى أحسن منهم ، لا

يأخذهم قومك فيفضحوهم ، وقد كان قومه نهوه أن يضيف رجلا فقالوا : خل عنا فلنضيف الرجال .

فجاء بهم ، فلم يعلم أحد إلا أهل البيت فخرجت امرأته فأخبرت قومها ، فقالت إن فى بيت لوط رجالا ما رأيت مثل وجوههم قط ، فجاءه قومه يهرعون إليه وقوله تعالى : « **ومن قبل كانوا يعملون السيئات** » أى هذا مع ما سلف لهم من الذنوب العظيمة الكبيرة الكثيرة « قال يا قوم هؤلاء بناتى هن أطهر لكم » يرشدهم إلى غشيان نسائهم وهن بناته شرعا ، لأن النبى للأمة بمنزلة الوالد كما ورد فى الحديث ، وكما قال تعالى « **النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم** » . وفى قول بعض الصحابة والسلف ، وهو أب لهم ، وهذا كقوله : « أتأتون الذكران من العالمين . وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم بل أنتم قوم عادون » .

وقوله تعالى : « **فاتقوا الله ولا تخزون فى ضيفى أليس منكم رجل رشيد** » . نهى لهم عن تعاطى مالا يليق من الفاحشة ، وشهادة عليهم بأنه ليس فيهم رجل له مسكة من عقل ، ولا فيه خير ، بل الجميع سفهاء فجرة أقوياء كفرة أغبياء وكان هذا من جملة ما أراد الملائكة أن يسمعوه منه من قبل أن يسألوه عنه . فقال قومه عليهم لعنة الله الحميد المجيد مجيبين لنبيهم فيما أمرهم به الأمر السديد « لقد علمت ما لنا فى بناتك من حق وإنك لتعلم ما نريد » .

يقولون – عليهم لعائن الله – لقد علمت يالوط أنه لا أرب لنا فى نسائنا ، وإنك لتعلم مرادنا وغرضنا ؛ واجهوا بهذا الكلام القبيح رسولهم الكريم ، ولم يخافوا سطوة العظيم ذى العذاب الأليم ، ولهذا قال عليه

الصلاة والسلام « لو أن لى بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد » .

ود أن لو كان له بهم قوة أو له منعة وعشيرة ينصرونه عليهم ليحل بهم ما يستحقونه من العذاب على هذا الخطاب ، وقد قال الزهرى عن سعيد بن المسيب وأبى سلمة عن أبى هريرة مرفوعاً « نحن أحق بالشك من إبراهيم ، ويرحم الله لوطاً لقد كان يأوى إلى ركن شديد ، ولو لبثت فى السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعى » .

وقال محمد بن عمرو بن علقمة عن أبى سلمة عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « **رحمة الله على لوط إن كان يأوى إلى ركن شديد – يعنى الله عز وجل – فما بعث الله بعده من نبى إلا فى ثروة من قومه** » .

وقال تعالى « **وجاء أهل المدينة يستبشرون ، قال إن هؤلاء ضيفى فلا تفضحون . واتقوا الله ولا تخزون . قالوا أو لم ننهك عن العالمين . قال هؤلاء بناتى إن كنتم فاعلين** » .

فأمرهم بقربان نسائهم ، وحذرهم الاستمرار على طريقتهم وسيئاتهم . هذا وهم فى ذلك لا ينتهون ولا يرعوون ، بل كلما نهاهم يبالغون فى تحصيل هؤلاء الضيفان ويحرصون ، ولم يعلموا ما حم به القدر مما هم إليه سائرون ، وصيحة ليلتهم إليه منقلبون . ولهذا قال تعالى مقسما بحياة نبيه محمد صلوات الله وسلامه عليه : « لعمرك إنهم لفى سكرتهم يعمهون » .

وقال تعالى « **ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنذر . ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم فذوقوا عذابى ونذر . ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر** » .

ذكر المفسرون وغيرهم أن نبى الله لوطا عليه السلام جعل يمانع قومه الدخول ويدافعهم والباب مغلق ، وهم يرومون فتحه وولوجه ، وهو يعظهم وينهاهم من وراء الباب وكل ما لهم فى إلحاح وإنحاح ، فلما ضاق الأمر وعسر الحال قال ما قال « لو أن لى بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد » لأحللت بكم النكال .

قالت الملائكة : « يا لوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك » وذكروا أن جبريل عليه السلام خرج عليهم فضرب وجوههم خفقة بطرف جناحه فطمست أعينهم ، حتى قيل أنها غارت بالكلية ولم يبق لها محل ولا عين ولا أثر ، فرجعوا يتحسسون مع الحيطان ويتوعدون رسول الرحمن ، ويقولون إذا كان الغد لنا وله شأن !

قال تعالى « **ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم فذوقوا عذابى ونذر . ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر** » .

فذلك أن الملائكة تقدمت إلى لوط عليه السلام آمرين له بأن يسرى هو وأهله من آخر الليل ، ولا يلتفت منهم أحد ، يعنى عند سماع صوت العذاب إذا حل بقومه – وأمروه أن يكون سيره فى آخرهم كالساقة لهم .

وقوله « إلا امرأتك » على قراءة النصب يحتمل أن يكون مستثنى من قوله « فأسر بأهلك » كأنه يقول إلا امرأتك فلا تسر بها ويحتمل أن يكون من قوله « ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك » أى فإنها ستلتفت فيصيبها ما أصابهم ، ويقوى هذا الأحتمال قراءة الرفع ، ولكن الأول أظهر فى المعنى والله أعلم .

قال السهيلي واسم امرأة لوط (والهة) واسم امرأة نوح (والغة) وقالوا له مبشرين بهلاك هؤلاء البغاة الملعونين النظراء والأشباه الذين جعلهم الله سلفا لكل خائن مريب « إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب » .

فلما خرج لوط عليه السلام بأهله وهم ابنتاه ، لم يتبعه منهم رجل واحد ، ويقال إن امرأته خرجت معه والله أعلم .

فلما خلصوا من بلادهم وطلعت الشمس فكانت عند شروقها ، جاءهم من أمر الله مالا يرد ، ومن البأس الشديد مالا يمكن أن يصد

قال تعالى « **فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل منضود . مسومة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد** » .

اقتلعهن جبريل بطرف جناحه من قرارهن – وكن سبع مدن – بمن فيهن من الأمم ، وقيل أنهم كانوا أربعمائة نسمة ، وقيل أربعة آلاف نسمة ومامعهم – الحيوانات وما يتبع تلك المدن من الأراضي والأماكن والمعتملات ، فرفع الجميع حتى بلغ بهن عنان السماء حتى سمعت الملائكة أصوات ديكهم ونباح كلابهم . ثم قلبها عليهم فجعل عاليها سافلها .

قال مجاهد فكان أول ما سقط منها شرفاتها .

« وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل » والسجيل فارسي معرب : وهو الشديد الصلب القوى « منضود » : أي يتبع بعضها بعضا في نزولها عليهم من السماء « مسومة » : أي معلمة مكتوب على كل حجر اسم صاحبه الذي يهبط عليه فيدمغه ، كما قال « مسومة عند ربك للمسرفين » ، وكما قال تعالى : « وأمطرنا عليهم مطراً فساء مطر المنذرين » . وقال تعالى

« والمؤتفكة أهوى – فغشاها ما غشى ، فبأى آلاء ربك تتمارى » . يعنى قلبها فأهوى بها منكسة عاليها سافلها وغشاها بمطر من حجارة من سجيل متتابعة مسومة مرموقة على كل حجر اسم صاحبه الذى سقط عليه من الحاضرين منهم فى بلدهم والغائبين عنها من المسافرين والنازحين والشاذين منها .

ويقال إن امرأة لوط مكثت مع قومها ، ويقال إنها خرجت مع زوجها وبنتيها ، ولكنها لما سمعت الصيحة وسقوط البلدة التفتت إلى قومها . وخالفت أمر ربها قديماً وحديثاً ، وقالت واقوماه ، فسقط عليها حجر فدمغها وألحقها بقومها إذ كانت على دينهم ، وكانت عيناً لهم على من يكون عند لوط من الضيفان .

كما قال تعالى « ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً وقيل ادخلا النار مع الداخلين » : أى خانتاهما فى الدين فلم يتبعاهم فيه ، وليس المراد أنهما كانتا على فاحشة فإن الله لا يقدر على نبى قط أن تبغى أمرأته . كما قال ابن عباس وغيره من أئمة السلف والخلف : ما بغت امرأة نبى قط . ومن قال خلاف ذلك فقد أخطأ خطأ كبيرا .

قال الله تعالى فى قصة الإفك لما أنزل براءة أم المؤمنين عائشة بنت الصديق زوج النبى ﷺ حين قال لها أهل الإفك ماقالوا ، فعاتب الله المؤمنين وأنب وزجر ووعظ وحذر « إذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم . ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم » . أى سبحانك

أن تكون زوجة نبيك بهذه المثابة .

وقوله هنا « وما هى من الظالمين ببعيد » : أى وما هذه العقوبة ببعيدة ممن أشبههم فى فعلهم .

ولهذا ذهب من ذهب من العلماء إلى أن اللائط يرجم ، سواء كان محصنا أولا ، ونص عليه الشافعى وأحمد بن حنبل وطائفة كثيرة من الأئمة .

واحتجوا أيضاً بما رواه الإمام أحمد وأهل السنن من حديث عمرو ابن أبى عمرو عن عكرمة عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال « **من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به** » .

وذهب أبو حنيفة إلى أن اللائط يلقى من شاهق (جبل) ويتبع بالحجارة ، كما فعل بقوم لوط لقوله تعالى « وما هى من الظالمين ببعيد » .

وجعل الله مكان تلك البلاد بحيرة منتنة لا ينتفع بمائها ولا بما حولها من الأراضى المتاخمة لفنائها ، لرداءتها ودناءتها ، فصارت عبرة ومثلة وعظة وآية على قدرة الله تعالى وعظمته وعزته فى انتقامه ممن خالف أمره ، وكذب رسله ، واتبع هواه ، وعصى مولاه ، ودليلا على رحمته بعباده المؤمنين فى إنجائه إياهم من المهلكات ، وإخراجه إياهم من الظلمات إلى النور كما قال الله تعالى « **إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين . وإن ربك لهو العزيز الرحيم** » . وقال الله تعالى : « **فأخذتهم الصيحة مشرقين . فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل . إن فى ذلك لآيات للمتوسمين . وإنها لبسبيل مقيم . إن فى ذلك لآية للمؤمنين** » : أى

من نظر بعين الفراسة والتوسم فيهم ، كيف غير الله تلك البلاد وأهلها ، وكيف جعلها بعدما كانت آهلة عامرة ، هالكة غامرة ؟ كما روى الترمذى وغيره مرفوعاً : « اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله » ثم قرأ « إن فى ذلك لآيات للمتوسمين »

وقوله تعالى « **وإنها لبسبيل مقيم** » : أى بطريق (مهيع) مسلوك إلى الآن كما قال « وإنكم لتمرون عليهم مصبحين . وبالليل أفلا تعقلون » .

وقال تعالى : « **ولقد تركنا منها آية بينة لقوم يعقلون** » .

وقال تعالى : « **فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين . فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين . وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم** » : أى تركناها عبرة وعظة لمن خاف عذاب الآخرة ، وخشى الرحمن بالغيب ، وخاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى ، فانزجر عن محارم الله وترك معاصيه ، وخاف أن يشابه قوم لوط ، ومن تشبه بقوم فهو منهم وإن لم يكن من كل وجه فمن بعض الوجوه كما قال بعضهم :

فإن لم تكونوا قوم لوط بعينهم
فما قوم لوط منكمو ببعيد

فالعاقل اللبيب الفاهم الخائف من ربه يمتثل ما أمره الله به عز وجل ، ويقبل ما أرشده إليه رسول الله ﷺ من إتيان ما خلق له من الزوجات الحلال والجوارى من السرارى ذوات الجمال ، وإياه أن يتبع كل شيطان مريد فيحقق عليه الوعيد ، ويدخله فى قوله تعالى : « **وما هى من الظالمين ببعيد** » .

وقوله تعالى بعد ذلك : « **فعصوا رسول ربهم فأخذهم أخذة رابية** » وذلك بعدما قال تعالى « **وجاء فرعون ومن قبله والمؤتكفات بالخاطئة** » المقصود بالخاطئة هنا هى الفعلة التى تعمدوا فعلها مما يغضب الله تعالى ، ولنا مع قوله تعالى « **فعصوا رسول ربهم** » وقفة تتعلق بالعقيدة . لماذا أفرد القرآن الرسول هنا مع أن الذين عصوا أمم كثيرة ، ولكل أمة رسول بل رسل . فقد سبق الحديث فى هذه السورة الكريمة عن عاد وثمود وقوم فرعون وقوم لوط وما بين ذلك ، مما عبر عنه الله تعالى بقوله « **وجاء فرعون ومن قبله** » فهذا حشد من الأمم رهيب ، يتبعه طابور من الرسل ، فلماذا أفرد الرسول فى قوله تعالى « **فعصوا رسول ربهم** » إنها إشارة لطيفة من إشارات القرآن الكريم تفيد أنه لما كانت عقيدة الرسل واحدة ، فهم جميعا يعملون فى معسكر واحد ، هو معسكر التوحيد ، وتحت لواء واحد ، هو لا إله إلا الله . يقول سيدهم ﷺ : أفضل ما قلته أنا والنبيون قبلى : لا إله إلا الله . والقرآن الكريم خير شاهد « وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون » لما كان ذلك فكأنهم جميعا رسول واحد ، وهنا يثور سؤال آخر فى سورة الشعراء كلما تحدث القرآن عن قوم من المكذبين ، يجمع المرسلين ويأتى بهم فى صيغة الجمع ، مع أن القوم جاءهم رسول واحد اسمع معى إلى قوله جل شأنه « كذبت قوم نوح المرسلين » مع أن رسولهم هود ، ورسول قوم نوح نوح ، وهكذا « كذبت ثمود المرسلين » . « كذبت قوم لوط المرسلين » ، « كذب أصحاب الأيكة المرسلين » ، فَلِمَ جمعهم مع أن المرسل إليهم واحد ؟

حكم من كذب رسولاً واحداً

وتلك إشارة أخرى من لطائف القرآن تتعلق بالعقيدة ، تفيد أن من كذب رسولا واحداً فكأنه كذب المرسلين جميعاً ، ومن آمن بواحد منهم ولم يؤمن بالآخرين لا يقبل منه إيمان اسمع إلى قوله تعالى فى خواتيم البقرة « آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير » .

يؤكد هذا المعنى ما جاء فى سورة النساء قال جل شأنه « إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا . أولئك هم الكافرون حقاً واعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً . الذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد أولئك سوف يؤتيهم أجورهم وكان الله غفوراً رحيما » .

من ثم فإن المؤمن يجب عليه أن يلتزم بما جاء فى قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذى نزل على رسوله والكتاب الذى أنزل من قبل ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيداً » . هذا الإيمان الخالص ، ونعوذ بالله أن نشرك به شيئاً .

الإشــراك بــاللّــه

يحدثنا الإمام ابن حجر المكى الهيثمى فى كتابه (الزواجر عن اقتراف الكبائر) عن الشرك – نعوذ بالله منه – فيقول : لما كان الكفر أعظم الذنوب ، كان أحق بأن يبسط الكلام عليه وعلى أحكامه فنقول : قال الله تعالى « **إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء** » وقال تعالى : « **إن الشرك لظلم عظيم** » وقال تعالى : « **إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار** » .

وفى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر : الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين » ، وكان متكئا فجلس وقال : ألا وقول الزور ، ألا وشهادة الزور . فمازال يكررها حتى قلنا ليته سكت .

وفى الحديث الصحيح أيضاً « **اجتنبوا السبع الموبقات** » **وذكر منها الإشراك بالله** .

وروى أحمد والبخارى والترمذى والنسائى « الكبائر الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين ، وقتل النفس » .

وأبو دود والنسائى : « الكبائر تسع ، وأعظمهن إشراك بالله » .

والطبرانى والحاكم والبيهقى : ألا أن أولياء الله المصلون ، ومن يقيم الصلوات الخمس التى كتبهن الله على عباده ، ويصوم رمضان ، ويحتسب صومه يرى أنه عليه حق ، ويؤتى زكاة ماله طيبة بها نفسه يحتسبها ،

ويجتنب الكبائر التي نهى الله عنها » قيل يا رسول الله كم الكبائر ؟ قال هي تسع ، أعظمهن الإشراك بالله ، وقتل المؤمن بغير حق ، والفرار من الزحف ، وقذف المحصنة ، والسحر ، وأكل مال اليتيم ، وأكل الربا ، وعقوق الوالدين المسلمين ، واستحلال البيت الحرام قبلتكم أحياء وأمواتاً ، لا يموت رجل لم يعمل هؤلاء الكبائر ويقيم الصلاة ويؤتى الزكاة إلا رافق محمداً ﷺ فى بحبوحة جنة أبوابها مصاريع الذهب » .

والبخارى وأبو يعلى والضياء : آمركم بثلاث وأنهاكم عن ثلاث : أن تعبدواالله ولا تشركوا به شيئاً ، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ، وتطيعوا لمن ولاه الله أمركم . وأنهاكم عن ثلاث : قيل وقال ، وإضاعة المال ، وكثرة السؤال .

والطبرانى « أيما رجل ارتد عن الإسلام فادعه إليه ، فإن تاب فاقبل منه ، وإن لم يتب فاضرب عنقه ، وأيما أمرأة ارتدت عن الإسلام فادعها ، فإن تابت فاقبل منها ، وإن أبت فأس بها » وظاهرة أن المرأة المرتدة لا تقتل وإلا صح عندنا خلافه ، لعموم الخبر الصحيح من بدل دينه فاقتلوه .

وروى البيهقى : من بدل دينه أو رجع عن دينه فاقتلوه ، ولا تعذبوا عباد الله بعذاب الله » يعنى النار .

والطبرانى : « من بدل دينه فاقتلوه ولا يقبل الله توبة عبد كفر بعد إسلامه : أى مادام مصرا على كفره »

وابن حبان : « من رجع عن دينه فاقتلوه ولا تعذبوا بعذاب الله أحداً » يعنى النار .

تنبيهات منها :

بيان الشرك وذكر جملة من أنواعه لكثرة وقوعها فى الناس وعلى ألسنة العامة من غير أن يعلموا أنها كذلك ، فإذا بان لهم بعضها فلعلهم أن يجتنبوها حتى لا تحبط أعمالهم ويخلدوا فى أعظم العذاب وأشد العقاب ، ومعرفة ذلك أمر مهم جداً ، فإن من ارتكب مكفراً تحبط جميع أعماله ، ويجب عليه قضاء الواجب منها عند جماعة من الأئمة كأبى حنيفة ، وقد توسع أصحابه فى المكفرات وعدوا منها جملا مستكثرة جداً ، وبالغوا فى ذلك أكثر من بقية أئمة المذاهب مع قولهم بأن الردة تحبط الأعمال وبأن من ارتد بانت منه زوجته وحرمت عليه ، فمع هذا التشديد العظيم بالغوا فى الأتساع فى المكفرات ، فتعين على كل ذى مسكة من دينه أن يعرف ماقالوه حتى يجتنبه ولا يقع فيه ، فيحبط عمله ، ويلزمه قضاؤه ، وتبين زوجته عند هؤلاء الأئمة بل عند الشافعى رضى الله عنه أن الردة وإن لم تحبط العمل لكنها تحبط ثوابه ، فلم يبق الخلاف بينه وبين غيره إلا فى القضاء فقط . والأكثرون وإن لم يقلدوهم لكن الاستبراء للدين والنفس المأمور به يوجب الأحتياط ومراعاة الخلاف ما أمكن ، سيما فى مثل هذا الباب الضيق الشديد الحرج فى الدنيا والآخرة) .

بعض أنواع الكفر والشرك

فن أنواع الكفر والشرك : أن يعزم الإنسان عليه فى زمن بعيد أو قريب أو يعلقه باللسان أو القلب على شئ ولو محالا عقليا فيما يظهر فيكفر حالا ، أو يعتقد ما يوجبه أو يفعل أو يتلفظ بما يدل عليه ، سواء أصدر عن اعتقاد أو عناد أو استهزاء ، كأن اعتقد قدم العالم ولو بالنوع ، أو نفى ماهو ثابت لله تعالى بالإجماع المعلوم من الدين بالضرورة ، كإنكار أصل نحو : علمه أو قدرته أو كونه يعلم الجزئى ، أو إثبات ماهو منفى عنه . كذلك : كاللون أو أنه متصل بالعالم أو خارج عنه على ما فى ذلك من نزاع .

وتفصيل حاصله أن النقص إما أن يعتقد اتصاف الله عز وجل وتبارك وتعالى عنه صريحاً أو لازماً ، فالأول كفر إجماعاً ، والثانى كذلك على خلاف فيه ، الأصح منه عندنا عدم الكفر ، فعلم أن نحو المجسم أو الجوهرى لا يكفر بما يلزم من مقالته من النقص إلا أن اعتقده أو صرح به . وكأن يسجد لمخلوق كالشمس إن لم تدل قرينة ظاهرة على عذره ، ويأتى هذا القيد فى كثير من المسائل .

وفى معنى ذلك كل من فعل فعلا أجمع المسلمون على أنه لا يصدر إلا من كافر ، وإن كان مصرحاً بالإسلام ، كالمشى إلى الكنائس مع أهلها بزيهم من الزنانير وغيرها ، أو يلقى ورقة فيها شئ من قرآن أو علم شرعى ،

أو فيها اسم الله تعالى أو اسم نبي أو ملك في نجاسة .

قال بعضهم : أو قذر طاهر كمني أو مخاط أو بصاق ، أو يلطخ ذلك أو مسجدا بنجس ولم يعفوا عنه ، أو يشك في نبوة نبي أجمع عليها لا كالخضر وخالد بن سنان ، أو في إنزال كتاب كذلك ، كالتورة أو الإنجيل أو زبور داود أو صحف إبراهيم ﷺ أو في آية من القرآن مجمع عليها كالمعوذتين ، أو في تكفير كل قائل قولا يتوصل به إلى تضليل الأمة ، أو تكفير الصحابة أو في مكة أو الكعبة أو المسجد الحرام ، أو في صفة الحج أو هيئته المعروفة ، وكذا الصلاة والصوم ، أو في حكم مجمع عليه معلوم من الدين بالضرورة ، كتحريم المكسى ومشروعية السنن كصلاة العيد ، أو استحل محرما كذلك ، كالصلاة بغير وضوء بخلافها مع نجاسة للخلاف فيها ، أو كإيذاء مسلم أو كافر ذمي بلا مسوغ شرعي بالنسبة لاعتقاده ، أو حرم حلالا كالبيع والنكاح ، وأن يقول عن نبينا ﷺ أنه كان أسود ، أو توفى قبل أن يلتحي ، أو ليس بقرشي أو عربي أو إنس . لأن وصفه بغير صفته تكذيب له . ويؤخذ منه أن كل صفة أجمعوا على ثبوتها له يكون إنكارها كفرا ، كما لو جوز بعثة نبي بعده ، أو قال لا أدرى أهو الذى بعث بمكة ومات بالمدينة أو غيره ، أو النبوة مكتسبة أو أن رتبتها يوصل إليها بصفاء القلب ، أو الولي أفضل من النبي أو أنه يوحى إليه وإن لم يدع النبوة يدخل الجنة قبل موته ، أو يعيب نبينا ﷺ ومثله غيره من الأنبياء بل والملائكة ، أو يلعنه أو يسبه أو يستخفف أو يستهزئ به أو بشئ من أفعاله ، أو يلحق به نقصا في نفسه أو نسبه أو دينه أو فعله ، أو يعرض بذلك أو يشبهه بشئ على طريق الإزراء ، أو التصغير لشأنه أو الغض

منه ، أو تمنى له مضرة أو نسب إليه مالا يليق بمنصبه على طريق الذم ، أو عبث فى جهته العزيزة بسخف من الكلام وهجر ومنكر من القول وزورا أو غيره بشئ مما جرى من البلاء والمحنة عليه ، أو غمصه ببعض العوارض البشرية الجائزة والمعهودة لديه . فيكفر بواحد مما ذكر إجماعاً فيقتل ، وقد قتل خالد بن الوليد رضى الله عنه من قال له عند صاحبكم ، وعد هذه الكلمة تنقيصا له ﷺ ، أو يرضى بالكفر ولو ضمنا ، كأن يشير على كافر بأن لا يسلم وإن لم يستشره ، أو يقول له لقنى كلمة الإسلام فيؤخر ، كأن يقول خطيب : اصبر حتى أفرغ من خطبتى بخلاف الدعاء نحو لا رزقه الله الإيمان ، أو ثبته الله على الكفر أو سلبه عن فلان المسلم إن أراد تشديد الأمر عليه ، أو سؤال الكفر لغيره لأنه رضا به أو يقول لمسلم يا كافر بلا تأويل لأنه سمى الإسلام كفرا .

هذا ما ذكره الإمام ابن حجر المكى الهيثمى فى كتابه (الزواجر) وقد ذكرناه هنا تنبيها للمسلم أن يكون حريصاً على عقيدته حرصه على حياته ، فليس أغلى من العقيدة أى شئ .

أسأل الله حسن الخاتمة على الإيمان به وبرسوله إنه تعالى خير مسئول وأكرم مأمول .

عبد الحميد كشك